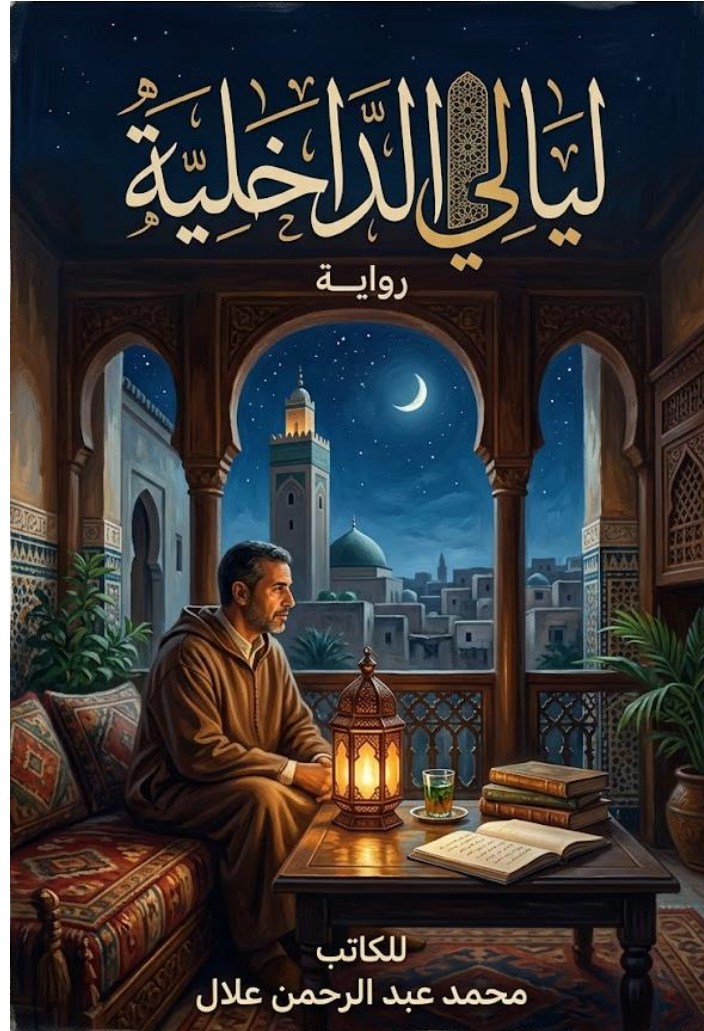


ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في
الداخلية ""دار الطالب ""بفجيج شرق المملكة
المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء
الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية
1974 حتى خروجه منها 1978



كان يوم الأربعاء الواقع في الرابع من شهر شتمبر من سنة الف وتسعمائة وأربعة وسبعين مشهودا حين وصل "تيمح" الى مدينة فجيح ، يرافقه ابوه في اول رحلة خروج بعد رحلة الهجرة الكبرى من قريته ايش على الحدود قبل خمس سنوات من اليوم. كانت الشمس ساطعة الوهج تفتت في وجه من تقع عليه اشعة ذلك القباح. دبت الحركة رويدا رويدا على طول الشارع الوحيد الممتد الى هناك ، الى ما وراء الحدود الوهمية . الى مدينة بنشار وما بعدها . ها هو في الثانوية يقف قبالة مكتب خلفه رجل مهمته يومها تسجيل الطلبة الجدد والقدامى للموسم الحالي . كان كل شيء جديدا عليه. ناوله ابوه أوراق تسجيله بقسم الملاحظة . غادرا الثانوية والساعة تتجاوز الحادية عشر قيب الظهر . حملتهما السيارة الى قصر زناقة عبر طريق معبدة طويلة . دخلا بعدها دارا قديمة من الطوب والطين والاعمدة . جلسا وهو لا يفهم مما يدور غير انه سترك وحيدا بقدر قليل في تلك المدينة . بعيدا عن اسرته . تناولا كسكسا محلي الاعداد . لم يستسغ طعم ذلك الطعام وعقله منشغل بالقدام بعد ساعات من مغادرة ابيه .

في الداخلية ، نزع حذاءه وجلس على كرسي قبالة طاولة مئمنة الشكّل عريضة . يتحلق حولها فتيان . كلهم جاءوا من مدن وقرى بعيدة . ينشدون ان يتعلموا ويتابعوا دراستهم في تلك الإعدادية العتيقة . لم ينتبه الى من كانوا يضحكون منه ساخرين . الا حين رآهم ينظرون الى أسفل تلك المائدة . تتجه عيونهم صوبه . حينها ، اطل بعين واحدة الى أسفل منه . فادا بقدميه تسبحان في الفراغ عاريتين من أي نعل . عاود النظر اليهم -وقد شمر بعض ممن سبقوه الى تلك الدار من الطلاب على سواعدهم . يضعون فوق تلك الطاولات ملاعق وصحونا زجاجية صغيرة الحجم والسعة ، ومن الأقفب

يضعون على جوانبها خبزا "الكومير" - فإذا هم ينظرون. يتنمرون.
صاخبة ضحكاتهم. صار يضحك لضحكهم ، ويحرك قدميه بسرعة كبيرة،
معتقداً أن تلك الحركة ستعجبهم عن رأيها على تلك الحال. نزل الأكل على
الموائد ساخنا ؛ فنسي ونسوا كل ذلك المشهد المثير. نسي ونسوا صورة قدميه
الحافيتين يسلبهم الطعام شهية النظر الى قدميه. بطفقوا يلتهمون ما بين
ايديهم كأنهم ذئاب جائعة وقعت على شاة سميكة. كانت اعينهم الى
الصحن لا تفارقها الا لبرهة و حاجة احدهم الى شربة ماء. انهى الجميع
تناول طعامهم ورحلوا الى خارج القاعة. وضع تيمح نعليه ولم يفارقه بعض
المتنمرين. كان الموعد مع قاعة النوم. انشغل كل نزيل بترتيب فراشه
استعدادا ليوم اول طويل في ذلك المكان. كانت الداخلية من قاعة نوم واحدة
طويلة عريضة ملى بالاسرة. اصطفت بها مثنى مثنى متباعدة قليلا. قد
لزمت موضعها منذ سنوات يتناوبها الطلاب جيلا بعد اخر. خرج تيمح
يكتشف بهو الدار. كان فضاء تنتظم فيه نخلات باسقات قد استقامت
واستطالت فتجاوزت سطح الغرف. رأى قاعة المطالعة ذات نوافذ واسعة.
تطل على الشارع الرئيسي بالمدينة حيث استقرت مدرسة "ابن رشيق على
جانبها الايسر. اكتشف مطبخ الدار باوانيه الضخمة تشرف عليه امرأة
وقورة بها جمال. احتوت قاعة الاكل خشبة للمسرح واسعة. ينسدل من
خلال واجهتها ستار من ثوب احمر اللون قليلا من جزئين على اليمين
وعلى اليسار. ينفتحان يدويا من خلال خيط رفيع يمتد في جانبيهما. كانت
منصة المسرح من خشب صلب مرتفعة عن الأرض بسنتيمترات متوسطة
العلو. حين حل المساء من اليوم الأول في الداخلية ، كان على موعد مع قاعة
السينما. خرج وبعض صحابه ممن سبقوه الى هناك يمشون على طول الطريق
المعبدة الطويلة الوحيدة الممتدة الى الابد في تلك المدينة. اثار انتباهه صورة
على جدار ذلك المبنى لرجل على رأسه قبعة مستديرة الشكل ، يمسك عصا
ويعلو جسده معطف عريض. عرف انه شارلي شابلن (شارلو)، لقد مرت

صورة هذا الممثل امام عينيه صغيرا في مدينته الاصلية .كانت سينيما العام
كما كان يحلو للناس ان يسموها تعرض لقطات سريعة لهذا الفنان الفذ في
عالم الشاشة العريضة انذاك ،كان الناس يضحكون ملء افواههم وقد
جمعتهم تلك الساحة نساءورجالا وصبيانا .دخل قاعة السينما فاذا هي
مساحة من الأرض تحيط بها جدران قديمة مبلطة بالاخضر .في عمق القاعة
منضدة وضع على احد جوانبها كؤوس مختلفة الاحجام .انتشرت كراسي
تتحلق في لمة حول طاولات قديمة كأنها جمع من اسرة على مائدة طعام في
ليل الشتاء.على يسار ذلك ، باب مغلقة لا تنفتح الا في الوقت المحدد .تنفتح
فقط في وجه من يحمل ورقة الدخول الى قاعة العرض.قلعة اتسعت بطولها
وعرضها تأخذ المقاعد عبرها أماكن رتبت عليها ترتيبا .في أقصاها هناك
،كانت شاشة عملاقة كما بدت له يومها قد اخفت واجهة ذلك الجدار
تماما.كانت القاعة يطبعها الظلام الا بريق من ضوء قادم من مصباح ما في
مكان ما منها .دخل تيمح القاعة بعد ان ادى واجب الدخول وقد كان زهيذا
على ذلك التاريخ .جلس الى مقعده وهاهو ينتظر بداية العرض ، ينتظر
بداية رحلة نحو عالم جديد اسمه السينما بكل معانيها ومفاهيمها
وامكاناتها.اطفأت الانوار الخافتة فجأة .صمت الجميع الا قليل من همس
بجوار مقعده لطفلين كانا على الطرف الايمن يلهوان بحديث عابر .ظهرت
الصورة كبيرة ضخمة بلون ابيض و اسود .فتحت على معمل به الات على
جانبيها رجال من بينهم ذلك المسمى "شارلو".مع توالي العرض ،لم
يتوقف تيمح عن الضحك ملء ذقنه .احيانا يكاد الضحك يقتله خنقا .عم
الضحك كل الكراسي الحاضرة، من الحاضرين من كان يكثر من الضرب على
راحة ايديهم من شدة عجبهم .لم يكن يسمع للممثلين على الفيلم صوت
.لم يكن يعلم سبب ذلك ،كان يتبع حركة الشخصية البارزة ويضحك مع
الضاحكين فقط .انتهى العرض.حانت العودة الى الداخلية ونزول قليل من
الظلام يغشي المدينة .نظر هنا وهناك من قاعة النوم، فاذا النزلاء من الاطفال

يجلسون مثنى مثنى على اسرتهم يتسامرون .انصب حديثهم اكثر حول موعد العشاء .لقد اصابهم الجوع واستبد بهم ولم يأكلوا شيئا منذ وجبة الغذاء.

تجمع الكل من جديد حول الموائد ذات الرؤوس الثمانية .وضعت على ظهرها صحون تجانبها ملاعق وقطع صغيرة من خبز "الكومير". بدت القطعة اصغر قليلا من تلك التي قدمت اثناء وجبة الغذاء .حطت على الطاولة في وسطها انية كبيرة كأنها طيار نزل بمظلته على ساحة حرب .آنية وضعتها يدان بعناية تامة .في وسط الآنية ملعقة كبيرة الحجم تدل على ما بداخلها .ما كان بداخلها سوى حساء من ماء وقليل من دقيق ويضع حبات من الحمص .كان البخار يتصاعد من الانية يخترق برائحته الانوف .قام احد النزلاء وكان من المتمرسين المجريين ،قام يوزع الحساء على الصحون فترفعها اياد كأنها تمارس طقوس الدعاء .مرت الجولة الأولى بسلام ،لا تسمع الا صوت الملاعق يلامس بحنان زجاج الاواني .رفعت الصحون مرة أخرى تستزيد من ذلك الحساء .كان الطفل تيمح مبهورا بما يرى .كان يرفع صحنه ايضا ،لكنه احس ان الجولة الثانية ليس لصالحه .عم هرج ومرج وصراخ وتدافع للايدي والادرع ،كان الجميع يصرخ بصوت مسموع ""زيد زيد ،زيد هنا ،ها انذا ها انذا ""في لحظة ما ،لنا اشتد التدافع حول تلك الانية و،اشتبكت الايدي وتشابكت بما تحمل من صحون وصراخ وجباه غاضبة مستنفرة،قام الموزع بالقاء تلك الملعقة على سطح الطاولة تطاير على اثر حركته رذاذ الحساء على الأوجه .خاطبه احدهم منفعلا "" واش راك دير العمى .شوف راك رشيتني بالحريرة"" ، لم يرد الموزع بل ترك كل شيء وقام من مكانه مغادرا وكلمات غير مسموعة لا تفارق فاه .كانت تلك لحظة من اول ليلة بالداخلية .اول ليلة عرف فيها معنى الجوع ،معنى الصراع من اجل لقمة طعام.اول ليلة صور فيها عقله

مشهدا يليق به ان يكون عرضا على شاشات السينما التي عرفها لأول مرة ذلك المساء بذلك المعنى . نام في ذلك الليل البعيد لأول مرة مع الجماعة . جماعة من الاطفال بينهم شبان بالغون في غرفة واحدة . كانت تتراءى له الاسرة مصطفة من مكان نومه كانها جثث هامة تخفيها عن نظره اكفان بيضاء . سكن كل شيء . هدا الليل وبداية الخريف , لا حفيف شجر , ولا صوت هبوب للريح يقلق راحة النائمين , لا شخير يوقظ نعاسهم . لم ينشغل عن النوم سوى بصوت محرك محطة انتاج الكهرباء كانت حذاء الدار تلامس جدرانها . كان صوت المحرك قويا رتيبا . يتسلل عبر النوافذ الزجاجية المستطيلة التي ملئت ذلك الجدار . غير بريق من ضوء مصباح من مصابيح تلك المحطة العديدة ينفذ . اصفر شاحبا يتراقص بين عينيه مع صوت ذلك المحرك في سمفونية خالصة مدغدغة للجفون . سمفونية تنسجها العينان والاذنان على اوتار يراقصها وقع ايقاع ذلك الصوت وضوء المصابيح . احس فجأة بالدموع تنساب من عينيه , تمنعه من ان يغطس في بحر النوم الجميل . كان يبكي ويبكي . ففي ذلك اليوم اجري اول اختبار في فراق اسرته . اختبار لاحت تباشيره منذ نجح في امتحان الشهادة الابتدائية . نام بعد ذلك عميقا . لا يتذكر ان راودته أحلام ام مر قطار نومه مباشرة الى محطة الصباح . حين حل ذلك الصباح , وقبل ان يزيح الغطاء عن وجهه فيلامس الضوء , قبل ان يرى اول ضوء لأول صباح في تلك الدار , كان سمعه على موعد مع صوت عذب الترنيمة , صوت شجي رخيم النبرات . كانت اغنية الصباح تلك تتهدى بطيئة كأنها قادمة من سالف العصور . صار يستمع الى ذلك الصوت الالمرنح بين ثنايا الاثير , يتمنى الا يتوقف . يتمنى الا تتقدم ساعات النهار فتقطع . رفع الثوب من على عينيه , فاذا هما تقعان على صورة رجل اسمر الوجه قليلا كما يتذكره . رجل مسن على رأسه قبعة بنية اللون قد احتوت جانبا كبيرا منه . سروال عريض يعلوه معطف اضى على وجه الرجل وقارا . خاطب الرجل الجميع وكل كان يهم بالقيام ومغادرة

السريير ""صباح الخير يا ابناءي.صباح النور. هيا الى العمل. هيا الى
الدراسة هيا الى النجاح ""ثم يستمر في الغناء والاسرة تتخلى شيئاً فشيئاً
عمن كانت تضمهم برفق قبل قليل.كان السي العربي بوعدة مديرا لاحدى
المدارس الابتدائية الملاصقة بجدرانها للداخلية.منذ ان فتحت تلك
الداخلية أبوابها قبل سنوات ،لم يتأخر عن تفقدأحوال من كان يعتبرهم
ابناءه من هؤلاء المساكين الذين دفعت بهم اقدار طلب العلم الى ذلك المكان
.لم يكونوا من أبناء بلدته ،لكن قلبه الكبير جمع حبههم جميعا .